مَنْ هو جرجي زيدان؟

هو جرجي بن حبيب زيدان، لبناني من عين عنوب، ولد في بيروت عام ١٨١٦م، وقد اضطر إلى ترك المدرسة صغيرًا، ثم تعلم الإنجليزية، والتحق بالكلية السورية الإنجيلية «الجامعة الأمريكية» ودرس بها الطب، ثم نشأت أحداث دفعته إلى الهرب فغادر الشام متجهًا إلى مصر حيث انصرف فيها إلى الصحافة والتأليف والنشر والترجمة، وقد قام بعدة أعمال من أبرزها مصاحبته للحملة الإنجليزية على السودان ترجماناً لها، وقد عاد إلى بيروت حيث درس اللغات السامية بها، ثم رجع إلى القاهرة بعد زيارة إنجلترا، وأسس بها مجلة الهلال عام ١٨٩٢م، وقد قام برحلات إلى بلدان مختلفة في أنحاء العالم، وتوفي سنة ١٩١٤م في القاهرة.

وكان جرجي زيدان يكتب في مجلة المقتطف حتى سنة ١٨٨٨م، ولم يشغله نشاطه الصحفي عن تأليف الكتب التاريخية، حيث ألف في مجال التاريخ الكتب التالية: تاريخ مصر الحديث في جزأين صدر عام ١٨٨٩، وتاريخ التمدن

الإسلامي في خمسة أجزاء صدر عام ١٩٠٢م، وتاريخ العرب قبل الإسلام صدر جزؤه الأول عام ١٩٠٨م، وتاريخ الماسونية العام صدر عام ١٨٨٩م، وتراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر صدر عام ١٩٠٢م، وكتاب رحلة جرجي زيدان إلى أوروبة عام ١٩١٢م، والتاريخ العام منذ الخليقة إلى الآن صدر منه الجزء الأول ١٩٠٨م، وتاريخ إنجلترا منذ نشأتها إلى هذه الأيام صدر عام ١٨٩٩م، وتاريخ اليونان والرومان (مختصر) صدر عام ١٨٩٧م.

وألف كتبًا في علوم مختلفة غير التاريخ منها: تاريخ آداب اللغة العربية في أربعة أجزاء، نشره فصولاً صدر أولها سنة ١٨٩٤م في عدد الهلال التاسع من السنة الثانية، وآخرها في أواخر السنة الثالثة، ثم شغل عنه مدة تربو على عشر سنوات، حيث عاد إليه وجمع مادته في كتاب حمل هذا الاسم وطبعت طبعته الأولى عام ١٩١١م، وقد طبعت الطبعة الثانية منه عام ١٩٧٨م، نشرتها دار مكتبة الحياة ببيروت.

وكتاب تاريخ اللغة العربية صدر عام ١٩٠٤م، وكتاب أنساب العرب القدماء صدر عام ١٩٠٦م، وكتاب الفلسفة

اللغوية والألفاظ العربية صدر عام ١٨٨٦م. وله كتاب بعنوان مختارات جرجي زيدان في فلسفة الاجتماع والعمران، صدر عن دار الهلال عام ١٩٢٠م[١].

وإن مما يدعو إلى التساؤل ـ عند كثير من النقاد ـ في أمر جرجي زيدان هذا التوجه منه إلى التاريخ الإسلامي يستقي منه مادة رواياته التاريخية، وقد فسر بعضهم هذا الأمر بقوله: «وعندما ترك لبنان واستقر في مصر، وجد نفسه في بيئة إسلامية لها معتقداتها الخاصة وتقاليدها، فآثر أن يكيف نفسه وفق ما تتطلبه بيئته الجديدة، واندمج في أهلها واستبطن عقلياتهم، واستطاع بآثاره العلمية والأدبية والصحفية أن يرضي الطبقات المختلفة»[٢].

بينما يرى بعض النقاد رأيًا آخر فيقول: « وهكذا قدمنا

(١) انظر الجزء الرابع من كتاب «تاريخ آداب اللغة العربية» لجرجي زيدان، ص٦٤٥، ففيه بيان لمؤلفات جرجي زيدان (الناشر: دار مكتبة الحياة)، وانظر كتاب: «جرجي زيدان: حياته ـ أعماله ـ ما قيل فيه »، تأليف نظير عبود (الطبعة الأولى، دار الجليل، ١٤٠٣)، وكتاب: «جرجي زيدان في الميزان» لشوقي أبي خليل (دار الفكر، تصوير ١٤٠٣هـ عن الطبعة الثالثة ١٩٨٢م)، واقرأ كذلك مقدمة رواية: «فتح الأندلس» لجرجي زيدان الصادرة عام ١٩٨٤م بقلم: الدكتور محمود علي مكي، وانظر كذلك كتاب: «الجديد في الأدب العربي» لحنا فاخوري، جـ٦ (الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني،١٩٦٩) ص٣٩٩ وما بعدها.

(٢) محمد يوسف نجم، القصة في الأدب العربي الحديث (الطبعة الثالثة، دار الثقافة، ١٩٦٦م)، ص١٧٦ .

ملاحظاتنا حول روايات جرجي زيدان التي تعمد فيها التخريب والكذب لأجل تحقير العرب، عن سوء قصد، لا عن جهل؛ فلا ينقص جرجي العلم بعد أن أوهم قراءه أنه عاد إلى مصادر ومراجع عربية، لكنه تعمد التحريف وتعمد الدس والتشويه، وتعمد فساد الاستنباط مع الطعن المدروس لعملته الأجنبية[1]، ولتعصّبه الديني الذي جعله ينظر إلى تاريخنا العربي الإسلامي، وآداب اللغة العربية بعين السخط والحقد»[2].

ويتناول بعض الكتاب هذا الموضوع بقدر كبير من الهدوء فيقول: «إن من البدهي ألا نجد تفسيرًا إسلاميّاً للتاريخ في روايات جرجي زيدان؛ ذلك لأن هذا التفسير لا يصدر إلا عن كاتب آمن به، وجرجي زيدان صاحب عقيدة مختلفة عن العقيدة الإسلامية، ثم إنه غير متعاطف مع هذا التاريخ الذي يكتب رواياته»[3].

وإذا تأملنا هذه الآراء وجدناها تتفق على أن جرجي زيدان

---

(١) راجع كتاب «تاريخ الماسونية» لجرجي زيدان لترى كيف يمتدح الماسونيين ويعد نفسه واحدًا منهم .

(٢) شوقي أبوخليل، جرجي زيدان في الميزان، ص٣٠٧ .

(٣) مأمون فريز جرار، خصائص القصة الإسلامية (الطبعة الأولى، جدة: دار المنارة، ١٤٠٨هـ) ص١٧٩ .

قد اتجه إلى التاريخ الإسلامي لأهداف شخصية لا علاقة لها بالرغبة في إحياء هذا التاريخ، وترسيخ مكانته في النفوس.

ولن أتدخل ـ الآن ـ بطرح رأي في هذه المسألة، ولكنني سأترك الدراسة التحليلية لرواية «صلاح الدين الأيوبي» تبين وجه الحق فيها .

obeikandl.com

صلاح الدين الأيوبي[1]

رواية تاريخية تعرض أحداثًا كثيرة، صغيرة وكبيرة، خيالية وحقيقية، تختص بحقبة تاريخية معينة، وهي الحقبة التي عاش فيها «العاضد»[2] أحد الخلفاء الفاطميين في مصر، وعاش فيها «المستضيء»[3] أحد الخلفاء العباسيين في العراق، واشتهر فيها «نور الدين محمود»[4] في الشام و«صلاح الدين الأيوبي»[5] في مصر.

الرواية تغطي مساحة ورقية تتجاوز الثلاثمائة والخمسين صفحة من القطع المتوسط، وتتكون من سبعة وستين مقطعًا لكل مقطع منها عنوان يدل على ما يجري فيه من الأحداث.

---

(١) (دار الهلال)، تقديم ودراسة د/ ثناء أنس الوجود.

(٢) العاضد لدين الله عبدالله بن يوسف بن الحافظ لدين الله، تولى الخلافة سنة ٥٥٥هـ وخلع ومات سنة ٥٦٧هـ، خلعه صلاح الدين الأيوبي، وانظر «تاريخ الخلفاء» للسيوطي (دار الفكر، ١٣٩٤هـ)، ص٤٨٢ .

(٣) المستضيء بأمر الله الحسن أبو محمد بن المستنجد بالله، عرف عنه العدل والكرم والحلم والأناة، وتوفي في ذي القعدة سنة ٥٧٥هـ، وانظر «تاريخ الخلفاء» للسيوطي، ص٤٠٩ .

(٤) نور الدين محمود بن زنكي، ملك الشام وديار الجزيرة ومصر، وهو أعدل ملوك زمانه وأجلّهم وأفضلهم، وكان موفقًا في حروبه مع الصليبيين، توفي عام ٥٦٩هـ، وانظر الأعلام للزركلي، جـ٨، ص٤٦، والبداية والنهاية لابن كثير، جـ١٢، ص٢٧٧، وما بعدها.

(٥) يوسف بن أيوب بن شاذي، وكان يلقب بالملك الناصر، وهو من أشهر ملوك زمانه، كان شجاعًا مجاهدًا، توفي عام ٥٨٩هـ، وانظر «الأعلام» جـ٩، ص٢٩١، وكتاب «صلاح الدين الأيوبي» لعبدالله علوان (الطبعة الأولى، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٣٩٤هـ).

يبدأ الكاتب روايته بمقدمة تاريخية يسميها «فذلكة»، يشير فيها إلى روايته السابقة لهذه الرواية وهي «فتاة القيروان»[1] التي انتهت بدخول مصر في حوزة الفاطميين والعبيديين سنة٣٥٨هـ[2]، ويوضح فيها ـ بإيجاز ـ وضع الدولة الفاطمية في مصر في تلك الفترة.

ونظرًا لطول الرواية، ولكثرة الاستطراد فيها، والمبالغة في سرد أخبار جانبية، ووصف للأماكن والأشخاص، والأثاث والمواكب وصفًا طويلاً، فإننا لن نتبع هنا ما صنعناه في الأعمال القصصية التي درسناها سابقًا للسحار، والعريان، وطه حسين[3] من تلخيص لمقاطع الرواية وفصولها، بل إننا سنجعل التلخيص هنا ضمن الدراسة التحليلية والنقدية التي سنحاول فيها أن نلم بأكبر قدر من أحداث رواية «صلاح الدين الأيوبي» وأشخاصها.

يلفت نظر المتابع لروايات تاريخ الإسلام التي كتبها جرجي زيدان تركيزه على اختيار أسماء الأشخاص عناوين لها، وبخاصة أسماء المشاهير من شخوص التأريخ الإسلامي

(١) (بيروت: دار مكتبة الحياة، المجلد الثاني، الرواية الرابعة في هذا المجلد).

(٢) انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص٤٨٢، الأعلام للسيوطي، جـ٤، ص، ٢٩١.

(٣) ستصدر هذه الدراسات في كتبٍ قريبًا إن شاء الله.

كالحجاج والعباسة أخت الرشيد، والأمين والمأمون، وعبدالرحمن الناصر، وأحمد بن طولون وغيرهم من الأشخاص الذين سمّى بهم جرجي زيدان رواياته، وهذا الأمر يوقفنا أمام سؤال طرحه بعض النقاد: «هل الروايات التي قام بكتابتها تعد من قبيل التراجم لهؤلاء الأشخاص أم أريد بها أن تكون مجرد روايات فنية؟»[1].

ولا بأس أن نجعل الإجابة عن هذا السؤال مدخلاً لتحليل الرواية التي بين أيدينا ودراستها.

نقول في البدء: لا يمكن أن تعد روايات جرجي زيدان التأريخية من قبيل التراجم لشخوص التأريخ الإسلامي التي يختارها، فإن المعنى المتعارف عليه لكلمة «التراجم» يدل على سرد موثّق لحياة المترجم له منذ مولده حتى وفاته، دون أن يتدخل الخيال في هذا السرد، وذلك ما لا ينطبق على مفهوم «العمل الروائي» الذي يعد الخيال جزءًا من تكوينه الفني، فإذا أدركنا أن جرجي زيدان يجعل للخيال سلطة كبيرة على الحقيقة في رواياته ـ كما سنعرف بعد قليل ـ علمنا يقينًا ـ أن رواياته لا يمكن أن تكون بمثابة التراجم للشخوص التاريخية

(١) جرجي زيدان، صلاح الدين الأيوبي، المقدمة بقلم د/ثناء أنس الوجود.

التي يتحدث عنها. يضاف إلى ذلك ما يلمسه القارئ من تقصير الكاتب مع شخوص التاريخ الذين يختارهم عناوين لبعض أعماله، حيث ينصرف عنهم كثيرًا إلى شخوص آخرين، بل إلى شخصيات خيالية لا يجوز ـ فنيّاً ـ أن يكون دورها أكبر من دور الشخصية الرئيسة في العمل القصصي.

«إن القارئ لرواية صلاح الدين الأيوبي هذا قد يصاب بالدهشة إذا طالعه الدور الذي أعطاه الكاتب لصلاح الدين، وهو لا يعدو أن يكون دورًا ثانويًا في أحد الأعمال الفنية»[1].

وبالمقابل ـ إجابة عن الجزء الثاني من السؤال ـ فإن روايات جرجي زيدان لا يمكن أن تعد روايات فنية بالمعني المراد هنا، وذلك لما تنطوي عليه من عبارات، وصور، ومواقف تبعدها ـ غالبًا ـ عن دائرة الفن القصصي بما تشمله هذه الدائرة من مواصفات وعناصر يعد وجودها في الرواية ضروريًا حتى تتحقق لها صفة «الفنية».

وإليك البيان: عندما تقرأ «الرواية» يتبادر إلى ذهنك أنك ستجد فيها طرحًا فنيًا لمواقف «صلاح الدين» والأحداث التي شارك فيها، في الشام وفي مصر، قبل توليه الوزارة وبعدها،

(١) مقدمة رواية «صلاح الدين الأيوبي».

وتظن أنك ستلم بطرف من أخبار صراعه الطويل مع الفاطميين وأنصارهم، ومع الصليبيين وأعوانهم في مصر والشام، وتحسب أنك سترى تصويرًا قصصيّاً مثيرًا لتلك المواقف والأحداث، وتصويرًا نفسيّاً وحسيّاً لأولئك الأشخاص التاريخيين وفي مقدمتهم «صلاح الدين» الذي حملت الرواية اسمه عنوانًا لها، ويكبر ظنك هذا عندما تقرأ تلك المراجع التاريخية التي سردها الكاتب في أول روايته، وأشار إلى أنه قد استقى الأحداث وسير الأشخاص منها، كل ذلك يخطر ببالك عندما ترى عنوان الرواية، فهل حقق لك الكاتب ذلك في روايته؟

أولاً: نلاحظ أن الأحداث والشخصيات المحورية في هذه الرواية خيالة لا وجود لها في عالم الحقيقة، فأبو الحسن ذلك الرجل الذي ادعى النسب الفاطمي[1]، وأحب «ست الملك» أخت العاضد[2]، وكان طامعاً في الخلافة مما جعله يدبر المكائد تلو المكائد[3] فشغل بذلك مساحة كبيرة من الرواية، أبو الحسن هذا شخصية خيالية لم نجد في كتب التاريخ ما يسعفنا بشيء عنها. وعماد الدين ذلك الفتى الشجاع الذي يتفانى في خدمة

(١) انظر ص٢٦٢ من رواية «صلاح الدين الأيوبي».

(٢) ص٣٩ وما بعدها من الرواية.

(٣) رواية صلاح الدين الأيوبي، ص٣٧ ـ ٧٩ ، ١٧١ ـ ٢٢١ .

صلاح الدين ويظل حاضرًا معنا في كل مقطع من مقاطع الرواية، والذي أحبته «ست الملك»[1] شخصية خيالية كذلك لا وجود لها تاريخيّاً. ونستثني من ذلك «ست الملك» فهي شخصية حقيقية ذكرتها كتب التاريخ، وإن كان الكتاب قد وقع في خطأ تاريخي يتعلق بهذه المرأة، سنبينه فيما بعد إن شاء الله.

ثانياً: الكاتب لا يحقق لنا ما نصبو إليه في روايته، وإنما يتخذ فيها سبلاً أخرى تبعدنا عن الهدف الرئيس الذي يوحي به العنوان. وهذا أول خطأ فني في الرواية، وأعني عدم التوافق بين عنوانها وبين أحداثها وشخوصها.. فلو أن جرجي زيدان وضع لها عنوان «ست الملك» أو «أبو الحسن» أو «عماد الدين» لكان أقرب إلى تحقيق مطالب الفن.

والقارئ يحسّ بهذا الخلل منذ الصفحات الأولى، حيث يجري ذلك الحوار الخيالي بين «العم حسن» و «عمر» حول موكب الخليفة العاضد[2]، وهو حوار طويل مسرف في الطول إذا ما قسناه بأحداث الرواية الأخرى، الأمر الذي يدفع القارئ إلى التساؤل ما الذي يعنيني من معرفة ألوان ثياب الخليفة ورجاله وأوصاف عمائمهم وأسلحتهم وخيولهم ومتاعهم، وهو

(١) رواية صلاح الدين ، ص١٣٩ وما بعدها.

(٢) رواية صلاح الدين، ص١٠ وما بعدها.

سؤال له ما يبرره هنا، فالعمل القصصي يسير وفق خطة فنية محكمة، فيها تسلسل يربط بين أحداثها وشخوصها، وإذا ما أفرط الكاتب في تصوير جانب من جوانب الرواية، وفرّط في تصوير الجوانب الأخرى، أحدث هزة فنية ربما تقضي على عنصر الترابط في العمل الروائي، مما يحول دون اندماج القارئ معه. «ومهمة القاص تنحصر في نقل القارئ إلى حياة القصة بحيث يتيح له الاندماج التام في حوادثها ويحمله على الاعتراف بصدق التفاعل الذي يحدث بين الشخصيات والحوادث»[1].

وهل يتسنى للكاتب أن يتيح للقارئ الاندماج في عمله القصصي إذا لم يحسن الربط الفني بين أجزاء هذا العمل ولم يحقق التوازن بين حقائق التاريخ ومطالب الفن؟؟

لقد كان بإمكان الحوار الخيالي الذي أشرنا إليه قبل قليل أن يؤدي دورًا إيجابيّاً في الرواية، وأن يكون بمثابة الفراش الفني لأحداثها لو أن الكاتب تجنب فيه الاستطراد في الأوصاف الحسية لأشياء ليس لها فائدة في البناء الفني. وإذا تجاوزنا عن طول هذا الحوار، وأغضينا عن طول الاستطراد فيه، وجدنا أن

(١) محمد يوسف، فن القصة، ص١٠ .

الكاتب قد استطاع أن يدخلنا من خلاله إلى وقائع لها علاقة بالشخصية الرئيسة في الرواية، أو التي كان يفترض أن تكون رئيسة، أعني شخصية «صلاح الدين» وفي هذا ـ لو اغتنمه الكاتب ـ فرصة فنية للدخول إلى عالم صلاح الدين.

«قال عمر: من هذا الباب؟ إلى أين؟

قال العم حسن: إنه خارج لاستقبال نجم الدين أيوب..

قال عمر: الخليفة خارج من القاهرة لاستقبال نجم الدين، ومن هو نجم الدين هذا؟

قال العم حسن: هو والد الوزير صلاح الدين يوسف، جاء من الشام لزيارة ابنه»[1].

هنا مدخل فني للرواية كان جديرًا بالكاتب أن يدخل منه إلى ما يتناسب مع عنوانها، وما يحقق الهدف الذي يوحي به هذا العنوان. ولكن جرجي زيدان لا يلتفت إلى هذا المدخل، ولا يعنيه في شيء.. فالذي يبدو أن لديه خطة خاصة به، وهدفًا خاصاً يسعى إلى تحقيقه.

اقرأ معي:

(١) رواية صلاح الدين الأيوبي، ص١١ .

«قال العم حسن: تغيرت الأحوال ياصاحبي، إن الخليفة لم يبق له من الخلافة إلا الاسم، وصار النفوذ إلى هذا الكردي . مسكين الغاصد»[1].

هنا إيحاء بهدف الكاتب فجملة «هذا الكردي» توحي بموقف خاص من الكاتب تجاه صلاح الدين، وهو موقف يظل في الغالب غامضًا، ولا يقترب من الوضوح إلا في عبارات متفرقة ومن خلال مواقف متباينة. على أن الكاتب قد وفق في جعل خبر موكب الخليفة والعاضد، واستقباله لنجم الدين[2] والد صلاح الدين، طريقًا إلى الكشف عن ملامح وصفات بعض شخوص روايته، فالحوار الذي دار بين «العم حسن» و «عمر» أخذ مساحة كبيرة من الرواية، ولكن الكاتب قد وصف من خلاله المواكب والأشخاص، وإذا كان لم يستفد منه ـ كما ذكرنا ـ في الدخول إلى عالم صلاح الدين، فإنه قد أفاد منه في كشف شخصية عماد الدين الخالية..

«فقال عمر: قف بالله قليلاً وأخبرني عن فارس أراه راكبًا بجانب صلاح الدين وعليه ثياب فاخرة..

---

(١) رواية صلاح الدين، ص١١ .

(٢) الأعلام، جـ١، ص٣٨١، وانظر : وفيات الأعيان لابن خلكان، جـ١، ص٨٤، وكتاب الروضتين لأبي شامة (القاهرة، ١٢٨٨هـ)، جـ١، ص٢٠٩ .

قال العم حسن: إنه من بعض خاصته، ولكنه فارس يحبه صلاح الدين كثيرًا، ولا صبر له على فراقه، واسمه عماد الدين»[1].

كما كشف لنا الكاتب من خلال هذا الحوار شخصية «أبي الحسن» الخالية..

«ولاحت من صلاح الدين التفاتة إلى الكهل المتقدم ذكره فرأى في وجهه اهتمامًا، وقد أبرقت عيناه وكادت تتقدان من التفكير فشغله أمره لحظة، فأدرك الخليفة اشتغاله بذلك وأراد تحويل الأذهان عن هديته، فوجه خطابه إلى صلاح الدين وقال وهو يشير بيده إلى ذلك الجليس: أظنك لا تعرف الشريف أبا الحسن، إنه من أعمامنا كان في سفر وقد جاءنا من عهد قريب»[2].

(١) رواية صلاح الدين الأيوبي، ص٢٠ .

(٢) رواية صلاح الدين، ص٢٦ ـ ٢٧، وانظر كتاب: جرجي زيدان في الميزان لشوقي أبي خليل، ص٢٥٠ وما بعدها.

شخصية صلاح الدين في الرواية

أشرنا من قبل إلى أن «صلاح الدين» لم يحظ بدور بارز في الرواية، ونود هنا أن نعرف حقيقة هذا الأمر، حيث نتتبع سيرة هذه الشخصية منذ بداية الرواية حتى نهايتها، لنرى القدر الذي حظيت به من اهتمام الكاتب في رواية تتجاوز صفحاتها ثلاثمائة وخمسين صفحة.

يواجهنا اسم صلاح الدين منذ النظرة الأولى إلى غلاف الرواية.. فإذا قلبنا صفحاتها الأولى وجدناها سردًا تأريخيّاً مقتضبًا لبعض أخبار الدولة الفاطمية في مصر، ليس فيه أثر للأسلوب الفني المعهود في المجال القصصي، وإنما هو أسلوب سردي تاريخي أشار الكاتب في الأسطر الأخيرة منه إلى سبب تدخل نور الدين زنكي في شؤون مصر المتمثل في الحروب الصليبية[1] التي احتدمت.

«فزاد تدخل نور الدين في شؤون مصر، ونائبه فيها شركويه[2]، ومعه ابن أخيه يوسف بن نجم الدين وهو صلاح

(١) راجع كتاب: شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام للدكتور محمد علي الهرفي (الطبعة الأولى، القاهرة: دار الاعتصام، ١٣٩٩هـ)، ص٣٩ وما بعدها.

(٢) الكامل في التاريخ، جـ١٢، ص٢٥٩ .

الدين الأيوبي الشهير، ومات شركويه بمصر سنة ٥٦٤هـ، فخلفه صلاح الدين في منصب النيابة وسمي وزيرًا، فاتخذ صلاح الدين ذلك وسيلة للاستقلال بسلطنة مصر لنفسه»[١].

ثم نرى اسم صلاح الدين ثانية بعد جولة طويلة نقضيها مع وصف مطول لموكب العاضد، ومواكب جنوده، ثم لموكب صلاح الدين وجنوده، من مثل قوله:

«قال العم حسن: ذقت يا بني أشياء كثيرة كدت أنساها الآن، ورأيت مجوهرات ومصوغات تبهر العقل، فكيف بما يلبسه الخليفة؟ انظر إلى هذه المظلة فإنها تشبه الهرم بشكلها، وهي من الديباج الأزرق السماوي وثوب الخليفة تحتها في هذا اللون أيضًا، ولو كانت حمراء لكان ثوبه أحمر، وانظر إلى الأهلة الذهب التي تتدلى من حواشي المظلة، وكيف أن أضلاع المظلة أو قوائمها مغطاة بالذهب، وفي قمتها رمانة ذهب كبيرة فوقها رمانة ذهب صغيرة مرصعة بالجواهر.. انظر إلى لمعانها فإنه يخطف البصر»[٢].

بعد جولات مع مثل هذا الوصف يقف بنا الكاتب أمام

(١) صلاح الدين الأيوبي، ص٩ .

(٢) صلاح الدين الأيوبي، ص١٤، ١٥ .

عنوان للمقطع الثالث من روايته « العاضد وصلاح الدين»، ونقرأ هذا المقطع بشغف لنعرف شيئًا عن صلاح الدين، وإذا بالكاتب يعود بنا إلى الوصف الحسي فيبدأ هذا المقطع بقوله:

«قال العم حسن: تمهل لأتم حديثي.. انظر إلى العمامة التي على رأس الخليفة، إنها بيضاء وشكلها إهليجي، وفي أعلاها فوق الجبهة حلية بشكل الهلال من ياقوت أحمر..»(١).

ويظل الكاتب يغوص بنا في محيط من الوصف ليس له شاطئ، حتى إذا شعرنا بالملل أسعفنا بذكر صلاح الدين، ولكن بالأسلوب الوصفي نفسه، وصف الموكب والملابس والحلي والجواهر..

«إن موكبه لا يقل عن موكب الخليفة في شيء، وأرى عليه ملابس أفخر من ملابسه»(٢).

ويظل كذلك حتى يخرجنا من دائرة الملل بهذه العبارة:

«هذا هو صلاح الدين، إن منظره يدعو إلى الهيبة أكثر من منظر الخليفة، انظر إلى هيبته وكيف أن الشجاعة ظاهرة في وجهه»(٣).

(١) رواية صلاح الدين، ص١٥ .

(٢، ٣) رواية صلاح الدين، ص١٨ .

والكاتب لا ينسى في هذا المهرجان الوصفي المباشر أن يذكرنا بموقفه الشخصي من صلاح الدين حيث يقول: «والبسطاء يستغربون خروج الخليفة لاستقبال ذلك الكردي، والعارفون لا يرون فيه غرابة لضعف أمر الخلافة»[1]، فعبارة «هذا الكردي» التي رأيناها في أول الرواية تعود إلينا هنا «ذلك الكردي»، مما يؤكد لنا ما أشرنا إليه سابقًا من موقف شخصي للكاتب تجاه صلاح الدين، بل إننا نجد ذلك الموقف يزداد وضوحًا في المقطع الخامس من الرواية، حيث جرى فيه حديث ودي بين العاضد ونجم الدين وابنه صلاح الدين أصرّ الكاتب على أن يجعل عنوانه «المداجاة» ليوحي للقارئ بأن كل كلمة طيبة قليت في هذا المقطع إنما هي من باب النفاق والمجاملة؛ ولذلك فقد أعقب هذا الكلام بحديث طويل أجراه بين صلاح الدين ووالده وردت فيه جمل وعبارات توحي بمطامع الرجلين، والجشع الذي يملأ نفسيهما ـ بحسب رأي الكاتب ـ فها هو نجم الدين ينطق بما يريد جرجي زيدان فيقول لولده: «فبقاؤك هنا، سواء كان باسم نور الدين أو باسمك جشع، وإنما تعده حقًا إذا كنت تستطيع تنفيذه، فالحق هو القوة يابني، تلك هي

(١) رواية صلاح الدين، ص٢٠ .

شريعة الفاتحين»[1]. ولا يقف جرجي زيدان عند هذا الحد بل يقول بأسلوب أوضح: «وكانت حجة نجم الدين قوية إلى درجة لم يقو معها صلاح الدين على الدفاع وكاد يفحم، ولكنه كان طامعًا في البلد ويريد أن يتذرع بأية وسيلة كانت لتحقيق ما يريد»[2]. وللقارئ أن يتأمل معي كلمة «بأية وسيلة» ويقلبها في ذهنه حتى نعود إلى مناقشتها فيما بعد.

وسار الكاتب في روايته على هذا المنوال، لا يورد اسم «صلاح الدين» إلا في مواقف توحي بطمعه في السلطة، وتدفع القارئ إلى إدانته، وتحول بينه وبين الإحساس بقوة شخصيته وصدق جهاده طبقًا لما أثبتته كتب التاريخ عنه ـ كما سنعرف فيما بعد ـ فها هو العاضد يشكو إلى أبي الحسن قائلاً: «إن يوسف صلاح الدين هذا، قد منع المؤذنين الأذان (حي على خير العمل) كما كانوا يفعلون في دولتنا، وعزل قضاة مصر لأنهم من شيعتنا، وولَّى قضاة شافعية على مذهبه، وقبض على مرافق البلاد بيد من حديد»[3].

ومن هنا انطلق الكاتب إلى سرد مواقف خيالية منحيًا

(١، ٢) رواية صلاح الدين، ص٣٤ .

(٣) رواية صلاح الدين، ص٣٧ ـ ٣٨، وانظر الكامل في التاريخ لابن الأثير.

فيها شخصية صلاح الدين عن أداء أي دور، ومصوّرًا الحرص الشديد لدى العاضد ومستشاريه للقضاء على صلاح الدين..

«يرى أبو الحسن يا مولاي أن العقدة التي يطلب حلها إنما هي يوسف صلاح الدين هذا، فإذا ذهب تخلصنا من كل هذه الشرور، وأبو الحسن يسعى في إنقاذنا منه»[1].

ثم يراجع الكاتب نفسه، فيجري على لسان «ست الملك» حديثًا توجهه إلى أخيها «العاضد» تمتدح فيه بطولة صلاح الدين وتدافع عن بعض مواقفه[2].

ويغيب عنا اسم صلاح الدين على مدى صفحات كثيرة، ثم نراه يرد ضمنًا أثناء الحديث عن علاقة «أبي الحسن» بـ «ضياء الدين عيسى الهكاري» وهو من رجال صلاح الدين المقربين إليه[3].

ثم نرى اسم صلاح الدين يرد بعد ذلك في حديث طويل جرى بين «ست الملك» وحاضنتها «ياقوتة»، حيث صرحت ست الملك بحبها للفتى الذي أنقذها والذي ظهر لها أنه «عماد

(١) جرجي زيدان، صلاح الدين الأيوبي، ص٤٥ .

(٢) انظر ص٥١ وما بعدها من الرواية.

(٣) رواية صلاح الدين، ص٧٣ .

الدين» أقرب رجال صلاح الدين إليه، وقد أكدت ياقوتة لسيدتها ذلك قائلة: «نعم علمت اسمه... ولكن هل تعلمين أنت من هو وما علاقته بصلاح الدين عدونا الألد الذي يشكو أخوك أمير المؤمنين من ظلمه؟»[1].

ويغيب عنا اسم صلاح الدين طويلاً ـ ثم يعود إلينا من خلال قصة خيالية أشار فيها الكاتب إلى أن صلاح الدين استجاب لنصيحة «عيسى الهكاري» فوافق على أن يخطب ست الملك إلى أخيها العاضد، وأردف ذلك بالعبارة التالية: «وأدرك صلاح الدين أنه يهون عليه ادعاء الخلافة بزواجه بأخت الخليفة، وإذا لزم النسب القرشي انتحل له نسبًا فيهم»[2].

ويبقينا الكاتب مع صلاح الدين في هذا المقطع حيث نراه مع والده نجم الدين يتحدثان عن عماد الدين ويشهدان سباق الخيول[3]، ثم نراه بعد ذلك يأوي إلى فراشه في الليل، حيث ينقل إلينا الكاتب صورته التالية: «بات صلاح الدين تلك الليلة كعادته وهو يفكر في أمر مصر ومطامعه فيها»[4]، ثم أعقبها

(١) جرجي زيدان، صلاح الدين الأيوبي، ص٨٩ .
(٢) رواية صلاح الدين، ص١٠٩ .
(٣) صلاح الدين، ص١١٠ .
(٤) صلاح الدين، ص١١٥ .

بالصورة التالية: «ودخل غرفته فرآه جالسًا على سريره بملابس النوم وقد أخذته الدهشة، فأسرع إليه وحياه فصاح به صلاح الدين: «ما هذا؟» وأشار إلى الوسادة عند رأسه، فتقدم عماد الدين فرأى خنجرًا مسلولاً عليه آثار دم قديم قد ألقي عند موضع رأس صلاح الدين من الوسادة»[1]. ولم يطب للكاتب أن يترك الأمر دون أن يشفعه بالموقف الخيالي التالي ـ يعرض فيه نص رسالة وجدوها مع الخنجر ـ: «من أحد مريدي سيد الإسماعيلية إلى يوسف صلاح الدين، اعلم يا يوسف أنك وإن أقفلت عليك الأبواب، وأقمت الحراس لا تقدر أن تنجو من القصاص، أراك قد بالغت في القحة وتطاولت واستبديت وظلمت ونسيت شيخ الجبل زعيم الإسماعيليين..»[2].

بعد هذا ينصرف الحديث عن صلاح الدين إلى عماد الدين وعلاقته بست الملك وعزمه على السفر إلى شيخ الجبل لقتله انتقامًا لصلاح الدين[3].

ثم يعود إلينا اسم صلاح الدين بعد غيبة ليست قصيرة،

---

(١) صلاح الدين، ص١١٦ .

(٢) صلاح الدين، ص١١٧ .

(٣) صلاح الدين الأيوبي، ص١٣٠ وما بعدها.

حيث يتحدث قراقوش مع عيسى الهكاري في أمور كثيرة منها ما رآه الهكاري من أهمية خطبة ست الملك لصلاح الدين، ومنها ما يتعلق بموقف صلاح الدين من نور الدين الزنكي، ثم يعقد الكاتب اجتماعًا في روايته بين صلاح الدين ورجاله ومعهم والده نجم الدين.. ويتضح في هذا الاجتماع حرص صلاح الدين على الاستقلال بمصر وعزمه على مخالفة أمر نور الدين، لولا أن أباه قد زجره عن ذلك، لا زهدًا منه فيما طمع فيه ابنه، ولكن تسترًا وكتمانًا حتى يتم التفكير في الأمر على تؤدة وأناة[1].

ويرد اسم صلاح الدين بعد ذلك في معرض الحديث عن قرب وفاة العاضد، حيث يعزم بمشورة والده نجم الدين على عدم المبايعة لخليفة فاطمي بعد العاضد، بحيث يعود الأمر إلى الخليفة العباسي في مصر[2].

ثم يود الكاتب ما روي من أن العاضد دعا صلاح الدين إليه وأوصاه بأهله خيرًا[3]، كما يشير إلى ما روي من قيام

(١) صلاح الدين، ص١٦١ ـ ١٧٠ .

(٢) صلاح الدين، ص١٨٤، وانظر كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي (الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٥٦م)، جـ١، ص١٩٤ .

(٣) جرجي زيدان، صلاح الدين الأيوبي، ص١٩٤، وانظر كتاب الروضتين، جـ١، ص١٩٤ .

بعض الفاطميين بمؤامرة ضد صلاح الدين استطاع أن يقضي عليها بقضائه على المتآمرين[1] .

ثم تنطوي صفحات أخرى من الرواية دون أن يرد ذكر صلاح الدين، حتى إذا وصل بنا الكاتب إلى اللقاء الأول الذي تم بين عماد الدين ورئيس الحشاشين «راشد الدين» وجدنا اسم صلاح الدين يرد في معرض المدح على لسان شيخ الإسماعلية.. «ثم رأى أن راشد الدين قد تنهدّ عند سماع اسم صلاح الدين ورمى الشعرة من يده وقال: صلاح الدين يوسف؟ أطال الله بقاءه»[2]. وتنتهي الرواية بالإشارة إلى اجتماع الأحبة «ست الملك» و«عماد الدين» عند صلاح الدين حيث فرح بنجاتهما[3].

هذا هو نصيب الشخصية التأريخية الكبيرة من الرواية التي تحمل اسمه إشارات قصيرة في مواضع مختلفة من الرواية، من خلال مواقف لا يكون لهذه الشخصية أثر كبير فيها، وبتأملنا لذلك نجد أن النصيب الأوفر من الرواية قد أعطي لشخصيات جانبية وخيالية هي ـ في الحقيقة ـ تابعة لشخصية صلاح الدين.

(١) جرجي زيدان، صلاح الدين الأيوبي، ص٢٢٠، وانظر الكامل لابن الأثير، جـ١١، ص١٧٩ .

(٢)جرجي زيدان، صلاح الدين الأيوبي، ص٢٩٧ .

(٣) صلاح الدين، ص٣٤٥ .

إن الدور الذي أسنده الكاتب إلى هذا القائد الكبير لا يتناسب مع قيمته ومكانته تاريخيًا، ولا مع الدور المنتظر منه فنيًا، ولذلك ظهر الضعف الفني في الرواية، وحدث فيها ما يمكن أن يسمى « خيبة الأمل» بالنسبة إلى القارئ.

ولعل هذا هو الذي حدا بكاتبة المقدمة لإحدى طبعات هذه الرواية أن تقول:

« .. بينما تركزت الرواية وهي تربو علي ٣٥٠ صفحة على رصد الفتن والدسائس التي أخذ يحيكها بعض الأشخاص للاستئثار بالخلافة بدلاً من الخليفة الفاطمي، ثم صراع نور الدين زنكي للاستيلاء بدوره على مصر بدلاً منه، أما صلاح الدين فقد كان يشبه أحد وزراء الظل في عالم السياسة، فلا وجود حقيقي ولا حضور من أي نوع في هذا العمل»[1].

وعندما نتذكر منزلة صلاح الدين في التاريخ الإسلامي، ونعرف مكانته عند أعدائه الصليبيين، ونتتبع معاركه البطولية في صد الأعداء عن بلاد الإسلام، ودوره الكبير في إصلاح الأوضاع في مصر والشام[2]، عندما نتذكر ذلك، ونحن نقرأ

(١) رواية صلاح الدين، المقدمة.

(٢) انظر كتاب الأعلام للزركلي، جـ ٩، ص٢٩٢، وانظر كتاب صلاح الدين الأيوبي لعبد الله علوان، ص٥٢ ـ ٦٢ .

هذه الرواية نشعر بتهافت المستوى الفني للرواية تبعًا للانفصام الذي ظهر فيها بين حقائق التأريخ التي جرت زمن صلاح الدين، والوقائع التي جرت بين دفتي رواية جرجي زيدان.

ويحسن بنا ونحن أمام هذه القضية أن نشير إلى أهمية التوازن بين واقع الشخصية التأرخية كما نقل إلينا، وبين دورها في العمل الروائي. فإذا فقد العمل الروائي هذا التوازن، أصابه الخلل الفني، وبدا للقارئ بعيدًا جدًا عن التماسك والترابط بين المواقف والأحداث، وبين الأشخاص كذلك.

وقد برز لنا هذا الأمر بوضوح في علاقة الخليفة العاضد بصلاح الدين الأيوبي، فبينما يصوّر لنا الكاتب في مواقف مختلفة حقده الشديد على صلاح الدين وسعيه الحثيث للتخلص منه، نجده في موقف آخر يُدني إليه صلاح الدين، ويكل إليه أمر أهله ويوصيه بهم ويهش له وهو في مرض موته.

ولا بأس من إيراد مثال على ذلك من الرواية:

«قال الجليس: ألا يعرف مولاي جماعة الباطنية أو الإسماعيلية؟

فأجفل العاضد عند سماع ذلك الاسم وقال: « نعم أسمع بهم وأسمع عنهم إنهم من أنصارنا...

قال الجليس: أصلهم من شيعتنا، ولكنهم الآن قوم شغلهم القتل. قال العاضد: من هو زعيمهم الآن، وأين هم .. قال الجليس: إن أصلهم يا سيدي من أتباع الحسن بن الصباح [1] في زمن جدك الحاكم بأمر الله... وزعيمهم الآن يقال له راشد الدين سنان... وللشريف أبي الحسن صداقة شخصية مع سنان هذا بالنظر إلى نسبه الشريف، وله عليه دالة، فإذا أمر بأن يبعث رجلاً يقتل هذا الرجل فعل...

فبان السرور في عيني العاضد يخالطه الاستغراب وقال: وكيف يستطيع القاتل أن ينجو من هذا المعسكر؟ وكي يقوم بعمله هذا الذي تعترضه سدود وعراقيل كما تعلم؟ قال الجليس: إن هؤلاء الفدائيين يتنكرون عادة بملابس السياس أو الخدم، ويختلطون بالخدم زمنًا يترقبون الفرص، فإذا سنحت فرصة حققوا غرضهم، ثم لا يهمهم ماذا يصيبهم بعد ذلك... فالتفت الخليفة إلى أخته يلتمس مشاركتها إياه في الإعجاب فرآها مطرقة تفكر، فقال لها: أرأيت اهتمام هذا الشريف بمصلحتنا؟»[2].

(١) انظر: صلاح الدين الأيوبي لبسام العسلي ص٤٦ .

(٢) جرجي زيدان صلاح الدين الأيوبي، ص٤٦ ـ ٤٧ .

هذا مشهد من الرواية نرى فيه الخليفة العاضد سعيداً بما سمعه من الجليس الذي نقل إليه عزم أبي الحسن على تدبير قتل صلاح الدين، وهذا أمر يتفق مع ما نقل عن أخلاق العاضد الذي «كانت سيرته مذمومة، وكان شيعيًا خبيثًا، لو أمكنه قتل كل من قدر عليه من أهل السنة»[1].

وبعد رحلة طويلة من أحداث الرواية يقابلنا النص التالي:

«ثم عاد العاضد إلى الكلام ووجه خطابه إلى صلاح الدين قائلاً: هذه ياصديقي أختي «ستّ الملك» التي بعثت تخطبها... وهؤلاء أبنائي وكبيرهم داود هذا... إني تارك أمرهم إليك خوفًا من أن يصيبهم مكروه بعدي، وأشهد عليك الله أن تأخذ بناصرهم فهل تعدني في أنك فاعل ما أقول»[2].

هنا يظهر التناقض في الرواية... هناك في الموقف السابق رأينا العاضد يستثقل صلاح الدين ولا يطيقه، بل ويفرح ويستبشر عندما علم أن أبا الحسن سيحاول التخلص منه بالقتل، وهنا في هذا الموقف نرى العاضد يستأنس بصلاح الدين، وينادي بقوله: «ياصديقي» وهي كلمة لا تقال إلا لمن

(١) البداية والنهاية لابن كثير، جـ١٢، ص٢٦٤ .

(٢) جرجي زيدان، صلاح الدين الأيوبي، ص١٩٨ .

يستحقها بما له من مكانة في نفس قائلها، وذلك ما لم يكن متحققًا عند «العاضد». ويؤيد هذا نص آخر جاء سابقًا للنص الذي ذكرناه قبل قليل، ويقول فيه جرجي زيدان على لسان العاضد وهو يوجه الكلام إلى أخته:

«وأنت تعلمين ما كان في خاطري عن السلطان صلاح (وأشار بيده نحوه) ولطالما شكوت معاملته.. أعترف لك بذلك وأنا في آخر ساعة من ساعات الدنيا وأول ساعة من ساعات الآخرة... أعترف أني شكوت من معاملته... لكنني لا أجد الآن من أثق في قوله وأتحقق أنه فاعل ما يقوله سواه»[1].

إذن فالعاضد لا يحب صلاح وليس صديقًا له، وهو يشكو من معاملته، أفيعقل أن يتحول بهذه السرعة ليصبح صديقًا للعاضد فيخاطبه بكلمة «ياصديقي». هذا دليل على عدم إجادة الكاتب لحبكة روايته، وعدم القدرة على بنائها الفني..

ربما يجد الناقد عذرًا لجرجي زيدان بأنه من أوائل من اتجه إلى كتابة الرواية التاريخية[2]؛ ولذلك كان من الأمور

(١) رواية صلاح الدين، ص١٨٩ .

(٢) علي شلق، نقاط التطور في الأدب العربي (الطبعة الأولي، بيروت: دار القلم، ١٩٧٥)، ص٤٤٨ .

المسلم بها أن تحدث في عمله فجوات فنية في مجال يشق طريقه فيه دون أن يكون له نماذج يحتذيها في الأدب العربي. وهذا عذر قد يكون مقبولاً إلى حد ما، ولكنه لا يعد مبررًا كافيًا لذلك الخلط الذي وقع فيه جرجي زيدان، خاصة وأنه قد احتذى حذو نماذج قصصية تأريخية تعد نماذج في الأدب الغربي، أي أنه سلك الطريق بعد أن رأى السالكين أمثال «ولتر سكوت» و«دوماس الأب»، مع اختلاف بينه وبينهم في بعض طرق المعالجة القصصية[1].

«ويظل للكاتب لدينا بعد ذلك أننا ندخله ضمن جيل الروَّاد، بمعنى أننا قد نتجاوز عن ضعف بعض المقومات الفنية اللازم توافرها في الرواية، ولكن بشرط أن يظل العمل محتفظًا بشخصيته كعمل فني»[2].

وإذا كانت الريادة قابلة لأن تكون عذرًا لضعف روايات

(١) محمد يوسف نجم، القصة في الأدب العربي الحديث (الطبعة الثالثة، بيروت : دار الثقافة، ١٩٦٦م)، ص١٨١، واقرأ المقدمة التي كتبها الدكتور محمد مصطفى هدارة لإحدى طبقات رواية «الأسير» لجرجي زيدان، الصادرة عام ١٩٨٥م، واقرأ كذلك المقدمة التي كتبها د/ عبد المعنم تليمة لإحدى طبقات رواية «شارل وعبد الرحمن» الصادرة عام ١٩٨٤م، وانظر كتاب الجديد في الأدب العربي تأليف حنا فاخوري (الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٩م)، جـ٦، ص٤٠٣ .

(٢) جرجي زيدان، صلاح الدين الأيوبي، المقدمة.

جرجي زيدان فنياً، فإنها لا يصح أن تكون عذرًا لما حدث في رواياته من خلل تاريخي واضح، على أن هذه الريادة ليست على إطلاقها، فقد نشرت رواية «زنوبيا» عام١٨٧١م، ورواية «الهيام في فتوح الشام» عام١٨٧٤م كتبهما سليم البستاني، ونشرتا قبل أن يبدأ جرجي زيدان بكتابة ونشر رواياته التاريخية بأكثر من عشرين عامًا[٢].

إن تلك الإشارات التي وردت في «صلاح الدين الأيوبي» والتي فيها اتهام لنوايا صلاح الدين، ومنطلقاته لا تخضع لقضية البناء الفني، وإنما هي مسألة «تاريخية» لها اتصال بفكر الكاتب ومعتقده، ومدى قدرته على توخي الصدق والعدل في مناقشة القضايا.

(١) شوقي أبو خليل، جرجي زيدان في الميزان، ص٢٥ .

ضعف المستوى الفني

إني لأميل - ميلاً يؤيده الدليل - إلى أن سبب العثرات الفنية في روايات جرجي زيدان، إنما هو عدم صدقه في التناول التاريخي لأحداث التأريخ الإسلامي، وهي مسألة تحتاج إلى مناقشة هادئة. فجرجي زيدان «نصراني» وصلاح الدين الأيوبي هو القائد المسلم القوي الذي حطم جبروت «الصليب» وردّ النصارى مدحورين، وحرر بين المقدس منهم .. فليس غريبا أن تكون لهذا الكاتب مواقفه السلبية من التأريخ الإسلامي، وموقفه «الاتهامي» من صلاح الدين الأيوبي. ولذلك فقد خالف ما عرف تأريخيًا عن صلاح الدين، بل وتجاهل تجاهلاً واضحًا المواقف العظمى لصلاح الدين تجاه النصارى، فلا نجد في روايته ذكرًا لمعركة «حطين» الكبرى، ولا لحروب المسلمين بقيادة صلاح الدين ضد النصارى « الصليبيين» الذين كانوا يهدفون إلى غزو العالم الإسلامي في قلبه النابض «مكة والمدينة»[1]، كما لا نجد إشارة إلى جوانب الإصلاح المختلفة

(١) جهز رينالد شاتيون أمير الكرك حملة كبيرة لغزو مكة والمدينة، وقد اعترضه صلاح الدين وعطل مساعيه، انظر كتاب: صلاح الدين الأيوبي لبسام العسلي (سلسلة مشاهير قادة الإسلام، دار النفائس، الطبعة السابعة، ١٤٠٧هـ)، ص، ١٤٣ وانظر البداية والنهاية، جـ ١٢، ص٣١١ .

التي قام بها صلاح الدين في أنحاء العالم الإسلامي آنذاك، الإصلاح العمراني، والتعليمي، والاقتصادي، الاجتماعي، والعقدي.. كما لا نجد وصفًا فنيًا صادقًا للجوانب المعنوية من شخصيته مما هو ثابت في كتب التاريخ[1].

ومن هنا جاء شخصية صلاح الدين في الرواية باهتة لا قيمة لها، فأدى ذلك إلى ضعف المستوى الفني «ذلك لأن الرواية بشكلها الحالي، أهالت كثيرًا من الأحداث على الشخصية المحورية، أو التي كان ينبغي أن تكون كذلك، وأعنى بها صلاح الدين، مما جعلها تتوارى في الظل، لكي تفقد الرواية بالتالي عنصر التماسك الدرامي فيها وقد تسبب هذا في جعل الأحداث أشبه شيء بمشاهد لا ربط بينها، وأحيانا، تبدو مثل قفزات ليس لها ما يبررها»[2].

ويمكن أن ندلل على هذا القول بنصوص من الرواية نفسها، فهذا هو عماد الدين يصمم على السفر إلى الشام ليقتل رئيس الإسماعيلية هناك، تلك الفرقة المغرمة بالقتل،

(١) انظر كتاب صلاح الدين الأيوبي لعبدالله علوان، ص١٤٠ ـ ١٨٨ .

(٢) جرجي زيدان، صلاح الدين الأيوبي، المقدمة.

والقائمة على الغدر كما وصفها نجم الدين في حديثه إلى عماد الدين[1].

«فقال عماد الدين: وما الفائدة من وجودي هنا، وهذه أول ليلة من حراستي أوشك مولاي السلطان أن يقتل فيها، أما ذهابي فأرجو أن يكون قاطعًا فاصلاً، أستحلفك برأس مولانا السلطان صلاح الدين أن تأذن بانصرافي في هذا السبيل وهذا شرف كبير لي»[2].

وفي موقف آخر نرى عماد الدين وقد أصبح سجينًا في بيت المقدس يلتقي بعبد الرحيم الذي سمى نفسه جرجس، وهو أحد رجال راشد الدين[3] شيخ الإسماعيلية، أو فرقة الحشاشين وهنا نرى صورة أخرى لعماد الدين، وصورة أخرى لفرقة الحشاشين:

«فكان عبدالرحيم يقضي معظم الوقت في التحدث عن راشد الدين وكراماته ومقدرته، وكيف أنه يعلم الغيب ويتنبأ عن المستقبل ويحدث الأحجار ويأتي بالمعجزات، وأنه يفعل ذلك لا لطمع في الدنيا، وإنما هو ينصر الإسلام، واستشهد

(١) رواية صلاح الدين، ص١٢٠، وانظر كتاب صلاح الدين الأيوبي لبسام العسلي، ص٤٦ وما بعدها، وانظر كذلك الكامل في التاريخ لابن الأثير، جـ٨، ص١٦١ .

(٢) جرجي زيدان، صلاح الدين الأيوبي، ص١٢٤ .

(٣)الأعلام للزركلي، جـ ٣، ص٢٠٦ .

على صحة قوله بالمهمة التى أتي بها لقتل صاحب بيت المقدس»[1].

ثم نرى صورة أخرى لهذه الفرقة في موضع آخر من الرواية:

«فقال عبدالرحيم: انظر يا أخي هؤلاء هم طلاب الانضمام، وأنت ترى الوحشية والعربدة وسفك الدماء في ملامحهم، وقد اشتهرت جماعتنا هذه بالفتك، فكل من يهون عليه قتل الأبرياء ويضيق به الرزق يأتي إلينا»[2].

ونرى بعد ذلك صورة أخرى لرئيس هذه الفرقة «راشد الدين»:

«فقال راشد الدين: كيف فارقت صلاح الدين، هل هو بصحة وسلامة؟

قال عماد الدين: نعم ياسيدي... قال راشد الدين: الحمد لله على ذلك... أحمد الله على سلامة صلاح الدين..»[3] .

ثم نرى بعد ذلك هذه الصورة:

---

(١)جرجي زيدان، صلاح الدين الأيوبي، ص٢٦٥ .

(٢) رواية صلاح الدين، ص٢٩٠ .

(٣) رواية صلاح الدين، ص٢٩٧ .

«وكان عماد الدين في أثناء حديث عبدالرحيم مصغيًا يفكر في دهاء هذا الطاغية، وكيف أنه عمد إلى الفتك بصديق قديم له لأنه رأى بقاءه حجر عثرة في طريقه»[1].

هذه نماذج خمسة اخترناها من مواضع متعددة في الرواية تتعلق بشخص واحد هو «عماد الدين» وبفرقة واحدة هي فرقة «الحشاشين» الإسماعيلية. ومع ذلك فقد حصل تناقض كبير بين هذه النماذج يضع أيدينا على صورة من صور الضعف الفني، والخلل التاريخي في رواية جرجي زيدان هذه. فعماد الدين يبدو في الأنموذج الأول الذي أوردناه قبل قليل مصممًا على تنفيذ ما عزم عليه من قتل رئيس الفرقة الضالة «الإسماعيلية» ولا يرضى بمناقشة هذا الأمر فضلاً عن التراجع عن تنفيذه. بينما نجده في الأنموذج الثاني وقد جمعته « الصدف»[2] بعبد الرحيم أحد رجال الإسماعيلية في السجن وهو يصغي إلى ما ينقله هذا الإسماعيلي عن راشد الدين زعيمهم من كرامات وأعمال صالحة.. مما يصيب عماد الدين بالدهشة. ثم يأتي الأنموذج الثالث معارضًا لهذه الصورة

(١) رواية صلاح الدين، ص٣٢٣ .

(٢) هذه سمة بارزة من سمات الروايات الزيدانية سنشير إليها فيما بعد مع يقيننا بأن كل ما يحصل إنما هو بقدر من الله .

الطيبة التي رسمها الأنموذج الثاني للحشاشين.. حيث نسمع عبدالرحيم صديق عماد الدين يصفهم بالوحشية والفتك وحب الغدر والاعتداء. أما الأنموذج الرابع فإنه ينقل إلينا صورة جميلة هادئة لراشد الدين، فنراه يسأل عن صلاح الدين سؤال المحب له الحريص على حياته. ثم يأتي - بعد ذلك كله - الأنموذج الخامس ليعود بنا إلى وصف راشد الدين بالفتك والطغيان خاصة وأنه ينوي الغدر بأحد أصدقائه.

تناقض مستمر لا ينقطع ينتشر في طول هذه الرواية وعرضها، وفيه مخالفة واضحة لحقائق التأريخ، فهل نعتذر لجرجي زيدان - بعد ذلك - بأنه رائد لهذا الفن فلا بد من التغاضي عن خطئه بسبب هذه الريادة؟ بل إن التناقض يظهر جليًا في شخصية «عبدالرحيم» الإسماعيلي، فبينما نراه مخلصًا كل الإخلاص لفرقته، متفانيًا في خدمتها، مترقيًا في مراتبها[1]، نراه فجأة في حوار قصير بينه وبين «عماد الدين» يظهر عدم ميله إلى هذه الفرقة، ويعبر عن خوفه منها ويعزم على الهرب[2].

(١) جرجي زيدان، صلاح الدين الأيوبي، ص٢٦٥ .

(٢) رواية صلاح الدين، ص٣٢٣ .

ثم إن هنالك خطأ فنيًا كبيرًا في هذا الموضع من الرواية، حيث ظهرت لنا صورة عبدالرحيم الإسماعيلي مشرقة، ورأينا صاحبها دمثًا، حسن الخلق، طيب المعشر، رحيم القلب، صادقًا، لا يعرف الخيانة.. فكيف نقبل هذا مع ما أشار إليه جرجي زيدان أكثر من مرة في روايته من غلظة رجال هذه الفرقة وسوء أخلاقهم وميلهم إلى الغدر؟؟

إن الأمر لا يتعلق بحداثة عهد الكاتب بهذا النوع من الأدب وإنما يتعلق باتجاه فكري وعقدي يرسم الكاتب من خلاله الإطار العام لرواياته التي كتبها عن التاريخ الإسلامي؛ ولهذا فهو يهمل الشخصيات التاريخية، ويهتم اهتمامًا بارزًا بالشخصيات الخيالية التي يصنعها لتؤدي الأدوار التي يريدها هو، حتى وإن تعارضت تلك الأدوار مع حقائق التاريخ.

إن فهم الشخصية التأريخية، والنظرة العادلة إليها يساعدان الكاتب المنصف على بناء عمل قصصي مترابط نزيه.. ويحدث العكس عند الكاتب غير المنصف، ولعل هذا هو الذي دعا أحد النقاد إلى القول: «أما شخصياته فإنه لا يعنى بها العناية الكافية، فلا نشعر أنها مخلوقات حية تتحرك على الورق كما تتحرك في واقع الحياة»[1].

(١) محمد يوسف نجم، القصة في الأدب العربي الحديث، ص١٨٦ .

ولا بأس أن نناقش هنا حقيقة شخصية (ست الملك) التي أوردها الكاتب في روايته، وجعل لها أدوارًا كبيرة فيها، بنى عليها الجانب «العاطفي الغرامي» المتخيّل، الأمر الذي صارت به سبت الملك أهم من شخصية صلاح الدين في الرواية. وقبل أن نتناول هذه الشخصية من خلال الرواية أود أن نعرف مكانها من كتب التاريخ..

«ست الملك بنت العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله الفاطمية العلوية أميرة من الفضليات الحازمات المدبرات، وهي أخت الحاكم بأمر الله الفاطمي «صاحب مصر»، كان الحاكم يستشيرها في معضلاته، ثم تغيّر عليها وهم بقتلها وساءت سيرته.. فاغتيل بتدبير من أخته سنة ٤١١هـ، على خلاف بين المؤرخين في هذا»[1].

ونفتش في كتب التاريخ عن «ست ملك» أخرى لها صلة بالخليفة العاضد فلا نجد، ونعجب لهذه الجرأة على نقل شخصية تاريخية من عصرها إلى عصر آخر يبعد عنها بعشرات السنوات دون مراعاة للأمانة التاريخية، علمًا بأن من

(١) الكامل في التاريخ، جـ٧، ص٣٠٤ ـ ٣٠٥، وانظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي وكذلك الأعلام للزركلي، جـ٣، ص١٣٠ .

مقومات العمل الروائي التأريخي أن تظل حرية الكاتب داخل الإطار التاريخي، حتى لا يصبح التأريخ مجالاً لعبث العابثين! ولا نستطيع أن نوجد تفسيرًا فنيًا، ولا موضوعيًا لهذا الأمر، فقد كان في وسع جرجي زيدان أن يصنع له شخصية امرأة تقوم بالأدوار التي أسندها إلى «ست الملك» دون أن يقع في هذا الخطأ الفني والتاريخي الكبير.

يقول في ذلك أحد الكتاب:

«وست الملك توفيت سنة ٤١٥هـ أي قبل قيام دولة الأيوبيين بكثير، وقبل العاضد بكثير، فالعاضد خلع سنة ٥٦٧هـ. فبين قيام دولة الأيوبيين والدعوة للعباسيين في مصر وانقراض الدولة العبيدية أيام العاضد وبين ست الملك مائة واثنتان وخمسون سنة، فست الملك ليست أخت العاضد لقد كانت عظامها رميمًا قبل العاضد بقرن ونصف، فكيف نسجت الرواية على هذا الخطأ التاريخي»[1].

فهل يمكن أن نعلق هذا الخطأ الفني على مشجب «الريادة» و«جيل الرواد». وإني لأعجب ـ بعد هذا ـ كل العجب من بعض الكتاب الذين تناولوا بعض روايات جرجي زيدان

(١) شوقي أبو خليل، جرجي زيدان في الميزان، ص٢٥١ ـ ٢٥٢ .

بالدراسة، حيث يشيرون إلى حرصه على تعليم التاريخ، ويشيدون بهذا الاتجاه، ومتناسين الأخطاء التاريخية الواضحة في رواياته.. يقول أحدهم :

«أما زيدان فكان همه الأول تعليم التاريخ وتشويق القارئ إلى مطالعته، فكان يبقي الحوادث التاريخية على حالها كما هي، ثم يربط أجزاءها المتناثرة بقصة غرامية»[١].

تأمل معي عبارة «فكان يبقي الحوادث التاريخية على حالها كما هي » ثم تذكر ما أشرنا إليه سابقًا من تحريف لأحداث التاريخ لتدرك عدم الدقة التي يقع فيها بعض الكتاب. ولا شك أنك ستزداد عجبًا حين تقرأ النص التالي للكاتب السابق نفسه، وقد ورد هذا النص أثناء دراسة له عن رواية «أسير المتمهدي» لجرجي زيدان[٢] حيث يقول:

«وهنا نضطر لأن ننبه إلى وجوب الحذر في موقفنا من بعض ما يورده المؤلف من المعلومات التاريخية، ونبدي شكنا في قيمتها كمادة تاريخية معتمدة»[٣].

---

(١) محمد يوسف نجم ، القصة في الأدب العربي الحديث، ص١٨١ .

(٢) صدرت عن دار الهلال بتقديم الدكتور محمد مصطفى هدّارة.

(٣) القصة في الأدب العربي الحديث، ص١٩٤ .

فهو هنا يحذر من بعض ما يورده جرجي زيدان في رواياته التاريخية، وقد كان قبل قليل يصفه بالمحافظة على أحداث التاريخ.

إن السبب في هذا التناقض ـ في نظري ـ يكمن في تلك الرؤية المزدوجة عند بعض الكتاب والنقاد إلى الأدب.. الرؤية التي تفصل بين الفن، والفكر، علمًا بأن الرؤية النقدية الواعية هي التي تنظر إليهما معًا أثناء الحكم على الكاتب.. فالكاتب الروائي الناجح هو الذي «يعرف كيف يحقق التوازن المطلوب بين الفكر والفن، بين متطلبات الحبكة الروائية وتدفقها، ومنحنيات الموضوع وضروراته»[1].

(١) عماد الدين خليل، محاولات جديدة في النقد الإسلامي، ص ٢٤٨ .

وقفة مع التاريخ

ونعود الآن إلى صلاح الدين في رواية جرجي زيدان لننظر إلى الموضوع من جانب آخر.. ألا وهو مخالفة ما نقله الكاتب عن صلاح الدين لحقائق التأريخ..

يقول ابن كثير عن صلاح الدين : « لم يترك في خزانته من الذهب سوى جرام واحد ـ أي دينار واحد ـ صوريًا وستة وثلاثين درهمًا، وقال غيره: سبعة وأربعين درهمًا، ولم يترك دارًا ولا عقارًا ولا مزرعة ولا بستانًا، ولا شيئًا من أنواع الأملاك»(١).

ويقول عنه ابن الأثير: «وأما كرمه فإنه كان كثير البذل، لا يقف في شيء يخرجه، ويكفي دليلاً على كرمه أنه لما مات لم يخلف في خزائنه غير دينار واحد صوري، وأربعين درهمًا ناصرية.. ولم يلبس شيئًا مما ينكره الشرع»(٢).

ويقول الزركلي عن صلاح الدين: «وكان رقيق النفس والقلب، على شدة بطولته، رجل سياسة وحرب، بعيد النظر،

(١) البداية والنهاية، جـ١٢، ص٤ .

(٢) الكامل في التاريخ،جـ ٩، ص٢٢٦ .

متواضعًا مع جنده وأمراء جيشه، لا يستطيع المتقرب منه إلا أن يحس بحب له ممزوج بهيبة.. اطلع على جانب حسن من الحديث والفقه والأدب ولا سيما أنساب العرب ووقائعهم، وحفظ ديوان الحماسة ولم يدخر لنفسه مالاً ولا عقارًا»[1].

ويقول عنه القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد الذي عاصره واجتمع به وعرف أخباره، يقول في كتابه «سيرة صلاح الدين» ما يلي: «وكان رحمه الله حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى.. وأما الصلاة فإنه كان ـ رحمه الله ـ شديد المواظبة عليها حتى إنه ذكر يومًا أنه من سنين ما صلى إلا جماعة، وكان يواظب على السنن والرواتب، وكان له صلوات يصليها إذا استيقظ من الليل.. وكان رحمه الله شديد الرغبة في سماع الحديث.. كثير التعظيم لشعائر الدين، وكان مبغضًا للفلاسفة والمعطلة»[2].

أما جرجي زيدان فيصور لنا شخصية صلاح الدين بما يلي:

«قال العم حسن: هذا هو يا صاحبي صلاح الدين الوزير،

(١) الأعلام، جـ٩، ص٢٩٢ .

(٢) عبدالله علوان، صلاح الدين الأيوبي، ص١٤١ ـ ١٤٣ .

وهذا الثوب الذي عليه هو خلعة السلطة خلعها عليه هذا الخليفة نفسه منذ ثلاث سنوات، وهي كما ترى عمامة بيضاء من نسج تتيس لها طرف مذهب وتحتها ثوب ديبقي مطرز بالذهب، وكذلك الجبة التي عليه، فإن تطريزها من الذهب، وفوق ذلك طيلسان مطرز بالذهب، وانظر في عنقه، هل ترى العقد؟ إنه من الجوهر يساوي عشرة آلاف دينار، وإلى جانبه سيف محلي بخمسة آلاف دينار، وتحته حجرة «فرس» قيمتها ثمانية آلاف دينار، وعليها سرج مذهب وسرسار ذهب مجوهر، وفي رأسها مائتا حبة جوهر وعلى رأسها قصبة بذهب، وفيها شدة بياض بأعلام بيض، هذا هو صلاح الدين»[1].

تأمل معي هذا الوصف، مستبعدًا من ذهنك ما امتلأت به كتب التاريخ من أخبار هذا القائد المسلم، ثم قل لي بعد ذلك كيف سيكون موقفك من صلاح الدين؟

عندما تقرأ الأجيال المسلمة تاريخية تحمل اسم صلاح الدين فترى هذا الوصف الذي أورده جرجي زيدان بما فيه من جواهر وذهب ولآلئ لا يكاد يحصرها العدد، مما لا تحلم بلبسه المترفات من النساء، ثم تسمع ما يروى عن صلاح الدين

(١) رواية صلاح الدين، ص١٨ .

من بطولات عظيمة دافع بها عن حوزة الدين، وصد بها الصليبيين ، عندما تقرأ الأجيال المسلمة ذلك، فماذا ستقول، وكيف ستكون نظرتها إلى أبطال الإسلام؟

كتب التاريخ تتفق ـ تقريبًا ـ على تواضع صلاح الدين، وزهده في المظاهر الكاذبة، بل يصرح ابن الأثير ـ كما سبق ـ بأنه لم يلبس شيئًا مما ينكره الشرع.. وجرجي زيدان يحمل جسد صلاح الدين هذه الأحمال من الذهب والجواهر وغيرهما من المعادن الثمينة.

أين الصدق التاريخي، والصدق الفني في هذه الرواية؟

أم أننا سنقول هنا إن جرجي زيدان من «جيل الرواد» فله العذر في ذلك ؟!

يقول جرجي زيدان:

«وأخذنا نهيئ أذهان القراء على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم ومداركهم لمطالعة هذا التاريخ بما ننشره من الروايات التاريخية الإسلامية تباعًا في «هلال»؛ لأن مطالعة التاريخ الصرف تثقل على جمهور القراء، وخصوصًا في بلادنا، والعلم لا يزال عندنا في دور الطفولة، فلابد من الاحتيال في نشر

العلم بيننا بما يرغب الناس في القراءة والروايات أفضل وسيلة لهذه الغاية»[1].

إن هذا النص يدل على أن جرجي زيدان «يخطئ خطأ من يعلم لا خطأ من يجهل»[2]. فهو يعلِّم التاريخ بطريقته الخاصة، التي تعطي القارئ ما لا يتفق مع الحقيقة، وذلك ما تثبته رواياته بالرغم من أنه ينفي ذلك صراحة فيقول:

«وأما نحن فالعمدة في رواياتنا على التاريخ وإنما نأتي بحوادث الرواية تشويقًا للمطالعين، فتبقى الحوادث التاريخية على حالها وندمج فيها قصة غرامية، تشوق المطالع إلى استتمام قراءتها، فيصبح الاعتماد على ما يجيء في هذه الروايات من حوادث التاريخ مثل الاعتماد على أي كتاب من كتب التاريخ من حيث الزمان والمكان والأشخاص»[3].

وهذا ادعاء واضح، سبق لنا أن طرحنا من خلال بعض أحداث رواية صلاح الدين ما ينقضه، فكيف نعتمد على

(١) تاريخ التمدن الإسلامي (الطبعة الأولى، ١٩١٠م)، جـ١، المقدمة، واقرأ كتاب «انتقاد كتاب تاريخ التمدن الإسلامي للشيخ شبلي النعماني، تقديم الشيخ محمد رشيد رضا (دار المنار بمصر، ١٣٣٠هـ).

(٢) شوقي أبو خليل، جرجي زيدان في الميزان، ص٩ .

(٣) رواية «الحجاج بن يوسف» طبعة دار الهلال.

روايات جرجي زيدان في حوادث التاريخ وشخوصه وهو الذي جعل «ست الملك» أخت الحاكم بأمر الله، أختًا للعاضد؟

بل كيف نصدق ما قاله من أن القصة الغرامية التي يأتي بها إنما هي للتشويق فليس لها تأثير في أحداث التاريخ، وقد أشرنا من قبل إلى الأثر الكبير الذي ظهر لقصة الغرام بين الشخصية الخيالية «عماد الدين» وبين ست الملك، في مقاطع رواية «صلاح الدين الأيوبي»: بل إن القصة الغرامية قد طغت على أحداث التاريخ، وجرفتها واستأثرت بصفحات القصة حتى كان آخر مقطع فيها بعنوان «اللقاء»، وقد جاءت السطور الأخيرة في الرواية كما يلي:

«فأعجبه جوابها فقال: كنت في رعايتي، ولكنك الآن في رعاية البطل عماد الدين ويحق لك أن تفتخري به كما يحق له الافتخار بك، قال ذلك وخرج وغادر سيدة الملك وقلبها يرقص فرحًا وقد نسيت كل مصائبها الماضية، واحتفلت مصر بزفاف سيدة الملك إلى عماد الدين احتفالها بزواج الملوك»[1].

هكذا تأتي الرواية خبرًا عن شخصية خيالية وهي

(١) جرجي زيدان، صلاح الدين الأيوبي، ص٣٥٧ .

شخصية عماد الدين، وشخصية تاريخية وضعت خطأ في زمانها ومكانها من الرواية ومن التأريخ وهي شخصية «ست الملك»، وبرغم ذلك كله فإن جرجي يقول لنا: «فيصبح الاعتماد على ما يجيء في هذا الروايات من حوادث التاريخ مثل الاعتماد على أي كتاب من كتب التاريخ».

يقول الدكتور مأمون فريز جرار: «إن من البدهي ألا نجد تفسيرًا إسلاميًا للتاريخ في روايات جرجي زيدان؛ ذلك لأن هذا التفسير لا يصدر إلا عن كاتب آمن به، وجرجي زيدان صاحب عقيدة مختلفة عن العقيدة الإسلامية»[1].

ويؤكد هذا المعني الدكتور نجيب الكيلاني فيقول: « ولقد حاول جرجي زيدان أن يقدم التاريخ الإسلامي في سلسلة من الروايات، وللأسف كانت ميتة الروح، جافة الينابيع، فظهر الخلفاء وأعلام الحرية والفكر الإسلامي نماذج سيئة التقديم»[2].

(٢) خصائص القصة الإسلامية (الطبعة الأولى، جدة: دار المنارة، ١٤٠٨هـ)، ص١٧٩ .

(٣) نجيب الكيلاني، الإسلامية والمذاهب الأدبية، ص٢٥ .